

عن القراءة والمعرفة « ترجمة من مجلة (Forum) الأمريكية »

تقع القراءة في قلب كل عمل نقوم به ؛ لأنها أساس كل تقدم بشري في الماضي والحاضر ، وترتبط ارتباطاً مباشراً بالكتابة والكتب والمكتبات ؛ أي أن القراءة هي الوجه الآخر للتواصل الكتابي ، والقراءة إنما تكون للكتب وفي المكتبات أساساً ، لذا فالعلاقة بين القراءة والكتابة والكتب والمكتبات وطيدة .

وقد وضع هذا جلياً في جمع القرآن الكريم بين القراءة والقلم ، والتعلم والتعليم ، فقال عز من قائل : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (العلق: ١-٥)

ومن المهم في بدء حديثنا عن القراءة أن نورد شيئاً عن الكتابة والكتب والمكتبات ، حتى يتضح تاريخ كفاح الإنسان من أجل أن تقرأ للأجيال ، وأن تتعلم ، باعتبار أن القراءة هي النافذة الرئيسية للمعرفة ، وفيما يلي بيان ذلك :

الكتابة والكتب والمكتبات "Writing, Books, and Libraries"

١- لقد كان لدى الشعوب المكتبات منذ حوالي ٦٠٠٠ سنة ، وسجلوا وثنائهم المكتوبة على العظم ، والصلصال "Clay" ، والمعادن ، والشمع ، والخشب ، والحجارة ، وورق البردي ، والحبر ، والجلد ، والجلد الرقيق "Parchment" ، وأخيراً على الورق والبلاستيك ، والشرائط الممغنطة ، ووضعوا هذه الوثائق في المكتبات .

٢- وأشهر مكتبة في التاريخ القديم كانت المكتبة اليونانية الموجودة في الإسكندرية بمصر ؛ لقد كانت تحتوي على أعظم المجموعات

"Collections" من مخطوطات "Scrolls" بلغت حوالي ٧٠٠,٠٠٠ سبعمائة ألف مجلد ، وكانت أقدم مكتبة حكومية أنشئت في أثينا "Athenas" عام ٥٠٠ قبل الميلاد . ولأن معظم الناس في ذلك الوقت كانوا لا يقرءون ، فإن قلة كانوا هم الذين يستخدمون المكتبات العامة . ولقد أنشأ الصينيون المكتبات في العصر القديم ، ولقد كتبوا أصلاً على ألواح "Tablets" من الخشب ، لكنهم في عام ١٠٥ م اخترعوا "Invented" الورق . وأقدم مخطوط مطبوع عُرِفَ إلى الآن في الصين ، يرجع إلى عام ٨٦٨ م ، وكانت الطباعة من حروف مصنوعة من الصلصال المطبوخ .

٣- وأما عن نمو الكتابة واللغة المرئية فتوجد أصولها في الصور البسيطة ، ومن بين أقدم الأمثلة على مثل هذه الخطوط المصورة ورسوم الحيوانات على جدران الكهوف .

٤- الكتابة الهيروغليفية "Hieroglyphic Writing" من حوالي ٥٠٠٠ سنة . كتب المصريون القدماء على أوراق البردي التي تنمو في نهر النيل ، ولقد كانوا يجمعون سيقان أوراق البردي في حزم ، ويضغطون الحزم أو الأعواد على شكل أوراق "Sheets" ، ويجمعون الأوراق معاً لتكون المخطوطات "Scrolls" ، أو اللفائف ، وبعض اللفائف أكثر من ٦٠ متراً طولاً ، والكلمة الإنجليزية "Paper" مشتقة من الكلمة المصرية "Papyrus" .

٥- الخط المسماري "Cuneiform Writing"

أما الخط المسماري ، وبعض الألواح الصلصالية القديمة التي اكتُشِفَت ، فقد وُجِدَت من أكثر من ٤٠٠٠ سنة ، وقام بها السومريون الذين عاشوا في جنوب العراق ، وخطهم المسماري اتخذ شكل مجموعة من المسامير التي تضغط على الصلصال ، أو تجمع لتوضع فيه لتمثل كلمات أو مقاطع "Syllables" .

٦- وعندما لم يكن البردي متاحاً كتب الدارسون في العالم الغربي القديم على الجلد المأخوذ من جلد الحيوان ، ثم فيما بعد حل الجلد الرقيق "Parchment" محل الجلد الغليظ ، وقد كان من مزايا الجلد الرقيق الكتابة على الوجهين بدلاً من الكتابة على وجه واحد ، كما هي الحال في أوراق البردي ، لكن لم يكن من الممكن على وجه واحد ، كما هو الحال في أوراق البردي ، لكن لم يكن من الممكن بسهولة جمع الجلود الرقيقة في لفات كما هو الحال في أوراق البردي ، وعلى هذا فإن الوراقين والمكتبيين بدءوا في تطبيق عدة أوراق من أوراق الجلد الرقيق من النصف وخيوطها في بعضها من خلال الثنية "Fold" ، ومن هنا وجد شكل الكتاب الذي ما يزال مستمراً إلى الآن .

٧- وفي السنوات الحديثة اتسع مفهوم المكتبة العامة ليوافق الحاجات المتزايدة لقطاع كبير من الجمهور في العالم كله ، ولذا وُجِدَت المكتبات المتحركة والمكتبات المسافرة في عربات نقل كبيرة ، وقد جُعِلَت هذه المكتبات المتحركة متاحة في المناطق الريفية أو في المناطق الفقيرة في المدن ، هؤلاء الذين يتعذر عليهم السفر إلى المكتبات إن لم يكن مستحيلاً ، كذلك فإن التقدم التكنولوجي مكّن المكتبات من أن تؤدي خدمات جليظة إضافية أكثر من إعارة الكتب ، فهناك أركان في المكتبات الآن للوسائط المتعددة "Multimedia" ، أصبحت المواد السمعية والبصرية متاحة ، كذلك المواد المسجلة على الأقراص "Discs" ، والشرائط ، كما يوجد « الميكروفيلم ، والميكروفيش » .

ومع هذه المستجدات والتحسينات ، فالكتاب هو قلب المكتبة ، وسيظل كذلك ، والمكتبة "Library" مشتقة من كلمة لاتينية هي "Liber" ، وتعني الكتاب .

وكذلك سيبقى الكتاب أعظم العلامات المضيئة ذات المعنى في تاريخ البشرية كله ، وستبقى المكتبة أقدس مكان لجمع الكتب .

٨- أما عن تزيين الكتب وإخراجها ، فقد ظل الناس عدة آلاف من السنين يكتبون الكتب بخط اليد ، وكانت تنسخ بجهد واجتهاد ، كما كانت تزيين تزييناً جيداً وتستخدم الأوراق المذهبة ، ومن هنا ظهر ما يسمى بتزيين المخطوطات .

وقد انتقلت صناعة الورق من الصين إلى أوروبا الغربية ، وفي حوالي ١٥٥٠م اخترع «جوهان جوتنبرج» الألماني الطباعة ، ودخلت طباعة الكتب إلى ما يسمى بالإنتاج الجماهيري ، أو إنتاج الوفرة ، وأصبح الكتاب وأصبحت المكتبات جزءاً من الحياة اليومية ، ولم يعد يستغنى عنهما شعب من الشعوب .
وتدفع المطابع الآن بعشرات الآلاف من الكتب والمجلات والجرائد كي يقرأ الناس ويلتمسوا حاضرهم ويستشرفوا مستقبلهم ، ولا عجب إذا جعلت الجماعة الدولية للقراءة عنوان مؤتمرها الرابع والأربعين الذي عقد في مدينة «سان دياجو» بولاية «كاليفورنيا» في الفترة من ٢ إلى ٧ مايو ١٩٩٩م ، «اكتب الماضي وقرأ المستقبل» . "Write the past, and read the future"

إن هذا العنوان يحمل في طياته معنى خطيراً هو أن بوابة المستقبل لن يدخلها غير القارئ ، ولكي تعيش مستقبلك لا بد أن تقرأ ؛ لأن التغير أصبح كبيراً ، وما لم نقرأ لن نلحق بما حولنا ومن حولنا ، ولذا ينادي كثير من المربين والقادة : على كل إنسان أن يفكر كثيراً في تغيير مهنته كل عدة سنوات؛ حتى يتكيف ويتلاءم مع ما حوله ، ومن حوله .

ولذا اهتم البحث العلمي منذ فترة طويلة بالقراءة وبدأت الدراسة المنظمة لعملية القراءة منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر ١٨٨٠م ، وتأثرت بعلم النفس التجريبي ، وظل الأمر كذلك حتى عشر السنوات الأولى من القرن العشرين ،

حيث ظهرت المدرسة السلوكية ، وبدأ البحث ينتقل من العمليات العقلية إلى غيرها من الجوانب السلوكية ، وفي ثلاثينيات وأربعينيات هذا القرن اهتم علم النفس التربوي بالاختبارات والمقاييس ، وفي خمسينيات وستينيات هذا القرن اهتم أكثر بتحديد مفهوم القراءة ، والشروط الواجب توافرها في القراءة الجيدة ، وفي ستينيات هذا القرن كان لعلم النفس المعرفي "Cognitive" وعلم النفس النمو أثرهما البين في تحديد النماذج المختلفة لعملية القراءة والأشكال المختلفة لها ، كذلك كان لعملية المعرفة ، ولعلماء علم النفس اللغوي واللغويين أثر كبير في الجمل وفهم معناها ، والسيطرة على بعض المهارات الأساسية للتعرف والفهم .

١- مرحلة السيطرة على المهارات الأساسية للقراءة ، ويمثلها الصفان الثاني والثالث من المرحلة الابتدائية ، وفيها تتم السيطرة على المهارات الأساسية للقراءة ، وهي التعرف والفهم بمستوياتها ، والنطق والسرعة المناسبة .

٢- مرحلة القراءة الواسعة ، وتمثلها الصفوف اللغوية في تحصيل المواد الدراسية المختلفة والسيطرة على بعض مهارات الدراسة لتلك المواد ، أي أنه لا يقتصر تعليم القراءة على السيطرة على مهاراتها ، بل يتعدى الأمر ذلك إلى التدريب على قراءة المواد الدراسية الأخرى كالعلوم والرياضيات والدراسات الاجتماعية . . . إلخ .

٣- المرحلة الخامسة : مرحلة الصقل والمراجعة والتهذيب ، وتمثلها المرحلة الإعدادية والثانوية ، وتتم فيها مساعدة الطلاب أكثر على القراءة في المواد الدراسية الأخرى ، وتحديد مشكلات القراءة ، والعمل على مواجهتها ، وفتح مجال أكثر للقراءة الواسعة في المجالات المختلفة، وإعطاء فرص مختلفة للطلاب للقراءة العلاجية والتصحيحية ، واستخدام مهارات الدراسة في إجراء بعض البحوث ، أو كتابة مقالات .

ما القراءة ؟

إن طرح سؤال مثل هذا يبدو غريباً ، ولكن لأن كثيراً من الناس لديهم أفكار خاطئة عن القراءة ينبغي أن تكون الإجابة واضحة ، ولقد انعكست هذه الأفكار عن القراءة وطبيعتها على تعليمها .

القراءة عملية عقلية تشمل تفسير الرموز التي يتلقاها القارئ عن طريق عينيه، وتتطلب هذه العملية فهم المعاني ، وتتطلب الربط بين الخبرة الشخصية وهذه المعاني ؛ فالعمليات النفسية المرتبطة بالقراءة على هذا معقدة لدرجة كبيرة .

من هنا فالقراءة عمليتان متصلتان : العملية الأولى الشكل الميكانيكي أي الاستجابات الفسيولوجية لما هو مكتوب ، والعملية الثانية عملية عقلية يتم خلالها تفسير المعنى ، وتشمل هذه العملية التفكير والاستنتاج ، والقراءة بهذا عملية تفكير معقدة ، تشمل أكثر من التعرف على الكلمات المطبوعة ، ولا يعي بعض المدرسين هذه الحقيقة ، ويعتقدون أن الطفل الذي يقدر على نطق الكلمات المكتوبة قارئ جيد ، لكن الحقيقة أن الطفل الذي يتعرف على الكلمات جوهرية في عملية القراءة ، لكنه - على أية حال - وسيلة لغاية أكثر من كونه غاية في ذاته .

وقد يعتقد بعض الناس أن القراءة هي قراءة الكلمات على الصفحة المطبوعة أو المكتوبة ، واستحضار المعنى الذي يريده المؤلف ، وإذا تقبل المدرسون هذا التعريف ، وعلموا الأطفال له فسوف تفقد الأجيال الناشئة كالقدرة على النقد والتقويم ، وسيكونون على استعداد لأن يقعوا ضحايا للدعايات المضللة .

إن القراءة في وضعها الحقيقي تشمل كلاً من التعرف على الكلمات ، وتحصيل تفكير الكاتب ، وتشمل بالإضافة إلى ذلك التفكير الخلاق والنقدي . فالقارئ ينبغي أن يربط ما يقرأ بخبرته السابقة ، ينبغي أن يفسر المادة

المقروءة ، ويقومها ، ويستخدم في ذلك التفكير والتخيل ، وينبغي أن يمزج الأفكار الجديدة ويقارنها بما قد تعلمه من قبل ؛ وذلك حتى يقوى استقلال تفكيره ومن هنا لا يمكن أن يصف المرء نفسه بأنه قارئ ماهر ما لم تستمر معه في أثناء عملية القراءة هذه الاتجاهات الفكرية الناقدة .

أسباب تغير معنى القراءة وتطور أهدافها :

مما سبق يتبين أن القراءة تشمل تعرف الرمز اللغوي ، والفهم ، والنقد ، والتذوق ، والتفاعل ، ولقد أدى إلى هذا الفهم الجديد لعملية القراءة عوامل نفسية واجتماعية .

قام « ثورنديك » بأبحاثه المشهورة التي أجراها على أخطاء التلاميذ الكبار في قراءة الفقرات ، وكان له - في الحقيقة - الفضل الأكبر في تغيير معنى القراءة ، فهي ليست عملية آلية يكتفي فيها بنطق الحروف والكلمات ، ولكنها عملية عقلية معقدة غاية التعقيد .

وكان ذلك في العشرينيات من هذا القرن ، وأصبح مفهوم القراءة التعرف على الرموز ونطقها مع فهم المعاني التي تعبر عنها تلك الرموز ، لأن الفصل بين الرمز ومعناه لا يعطي دلالة تحفز المتعلم في عملية التعلم ، وكان من نتيجة هذا التطور أن نالت القراءة الصامته عناية كبيرة في مجال البحوث المتعلقة بالقراءة ، ولقد كان للتغيرات السياسية والاجتماعية التي أصابت المجتمعات بعد الحرب العالمية الأولى أثره في اتجاه المجتمعات إلى اتخاذ الديمقراطية نظام حكم لها وأسلوب حياة تعيش عليه ، فظهرت الحاجة إلى المواطن القادر على الإسهام في معالجة مشكلات مجتمعه والاشتراك - بفاعلية - في المؤسسات الديمقراطية التي أقيمت ، ومن ثم أصبح الاقتصار في مفهوم القراءة على معنى النطق والفهم ليس كافياً ؛ لأنه يؤدي إلى تربية مواطن يقدر الكلمة المكتوبة ، ولا يستطيع نقدها أو مناقشتها ؛ ولذلك ظهر تحول جديد

في مفهوم القراءة يركز على القراءة الناقدة التي تمكن القارئ من تحليل ما يقرؤه ونقده ، وإبداء الرأي فيه ، والاتفاق مع ما يقرأ ، والاختلاف معه . وبذلك أصبح مفهوم القراءة نطقاً ، وفهماً ، ونقداً ، وتحليلاً ، وساعد على هذا أيضاً ما كشفت عنه الأبحاث العلمية في القراءة الصامتة .

وواكب تطور معنى القراءة تغير أهداف تعليمها . وكما كان التطور معنى القراءة أسباب متنوعة نفسية واجتماعية وعلمية ، كان لتغير أهداف تعليمها أسباب نفسية واجتماعية وعلمية كذلك ، ومن المهم أن تتغير أهداف تعليم القراءة باستمرار عبر السنين ، وقدرتنا على تعرف هذه الأهداف أمر جوهري لبناء برنامج قرائي فعال .

ففي سنة ١٩٢٧م عد «يانج Young» ما يلي من أهداف تعليم القراءة: الزيادة في الثورة اللغوية ، والفهم ، وتنمية الرغبة في قراءة الكتب ، ونمو حركات العين المنتظمة ، وخفض الحركات الرجعية والوقفات ، والزيادة في سرعة القراءة والتركيز ، واستبعاد الصوت في أثناء القراءة الصامتة .

وعلى الرغم من عدم تحقيق بعض الأهداف السابقة فإن تقرير «يانج» عن أهداف تعليم القراءة غير كافٍ اليوم وغير ملائم ، فلقد اتسعت أهداف تعليم القراءة ، وتغير تأكيدنا وتحول من هدف إلى هدف آخر بحسب الظروف الاجتماعية والسياسية المتغيرة .

فمن سنة ١٩٢٠م إلى سنة ١٩٣٠م استمر الاهتمام بالقراءة الصامتة والفهم وتأكيد الفروق الفردية والقراءة العلاجية ، ومع الاهتمام بالفروق الفردية وجدت الطرق التجريبية والإحصائية والاختبارات النفسية التي طبقت لتحليل سلوك الطفل في القراءة .

ولقد كان الاتجاه إلى القراءة الصامتة كبيراً في الثلاثينيات ، ونقدت بعض المدارس بعنف لأنها اهتمت كثيراً بالقراءة الجهرية ، حقاً علّمت القراءة الجهرية، لكنها لم ترجع إلى سابق مجدها فيما قبل سنة ١٩٢٠ م .

ولقد أبرز "Gates" في كتابه «تحسين القراءة» التشخيص والعلاج كأمرين مهمين في تعليم القراءة ، وعد التأخر في القراءة عملية معقدة لا يمكن فهمها وتبين جذورها إلا بدراسة مجموعة من العوامل المتصلة المتشابكة .

ولا تُذكر ابتكارات في الفترة من سنة ١٩٣٠م إلى سنة ١٩٤٠م ، فهي لم تكن أكثر من فترة تثبيت لمفاهيم سابقة ، إذ اتسع مفهوم الاستعداد للقراءة بحيث امتد ليشمل الاستعداد للقراءة في المدارس الثانوية والجامعات ، ووجهت عناية أكثر للقراءة العلاجية ومواد القراءة وكمية الكتب ، وزادت مواد القراءة الإضافية زيادة كبيرة .

واستمر الاتجاه نحو الاستماع في قراءة المواد المتنوعة سائداً في أوائل الخمسينيات ، وتأكد لدى كل المدرسين مسئوليتهم في تعليم القراءة .

ومنذ سنة ١٩٥٧م بعد أن أطلقت روسيا القمر الصناعي الأول ظهر مجال جديد للقراءة ، ونسب القصور القومي في أمريكا إلى فشل حجرة الدراسة في تحقيق التقدم العلمي ، وبخاصة في تعليم القراءة ، وهذا المجال الجديد هو القراءة للابتكار .

وظيفة القراءة :

في تراثنا العربي والإسلامي كثير من الإشارات الدالة على أهمية القراءة ، ودورها في حياة الجماعات ، فالأمر الإلهي الكريم (اقرأ) كان بمثابة إشارة عميقة إلى أن مفتاح الحياة وإلى مفتاح الدين القراءة ، فمنها تأتي جميع الخبرات ، وربما كان لهذا الأمر الكريم أثره في الكتابات التي تلت ذلك ، والخاصة بالذكر بأهمية القراءة ، وأثر الكتاب .

أقرأ ما قاله « الجاحظ » :

« الكتاب وعاء مليء علمًا ، وظرف حُشِيَّ ظرفًا ، وبستان يحمل في ردن ، وروضة تنقل في حجر ، وناطق ينطق عن الموتى ويترحم على الأحياء .
ولا أعلم رفيقًا أطوع ولا معلمًا أخضع ، ولا صاحبًا أظهر كفاية ، ولا أقل جناية ولا أكثر أعجوبة وتصرفًا ولا أقل تصلفًا وتكلفًا من كتاب . »

وأقرأ هذا البيت للمتنبى :

أعز مكان في الدني سرج سابع وخير جليس في الزمان كتاب
ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى ، أو لاقيت بشعورك شعور آخر
ولاقت بخيالك خيال غيرك ، فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين ،
أو أن الشعور يصبح شعورين ، أو أن الخيال يصبح خيالين . . . كلا ، وإنما
تصبح الفكرة بهذا التلاقي ماث من الفكر في القوة والعمق والامتداد .

ولو أردنا أن نستطرد في ذلك ما قاله المفكرون العرب في هذا المجال
لاحتجنا إلى عشرات الصفحات ، لكن يكفي ما سقنا دليلاً على أن نظرتنا إلى
القراءة والكتاب نظرة متحضرة وعميقة منذ فترة طويلة ، بل إن المكتبة الأولى
في مصر وضعت تحت حماية الآلهة ، وكتب على بابها « هنا غذاء النفوس ،
وطب العقول » .

ومن المفيد هنا أن نذكر بعض الأقوال التي قيلت في الغرب عن القراءة ،
ويمكن للقارئ أن يقارن بين هذه الأقوال ، وما قيل من قبل .

فهذا « توماس جيفرسون » الرئيس الأمريكي الثالث يقول : إن من يقرءون
هم الأحرار - فقط - لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة ، وهذا من ألد أعداء
الحرية ، ويسأل فولتير من يقود الأمم؟ ويجيب هو نفسه عن هذا السؤال بقوله:
يقود الأمم هؤلاء الذين يقرءون ويكتبون .

وفي الحقيقة فإنه على الرغم من أن هناك كثيراً من وسائل المعرفة ، كالاستماع إلى الراديو أو المسجل ، ومشاهدة التلفزيون ، إلا أن الكلمة المكتوبة لا تزال حتى الآن أوسع أبواب المعرفة ، وأطوعها ، ولا نظن أن جيلاً من الأجيال سوف يقلل من أهميتها ، بل نعتقد أن المشكلة الملحة الآن في بلدنا هي : كيف نجعل الكتب جذابة وممتعة بحيث يقبل عليها النشء ، لكي يتشقف ويعمق فكره ؟ إذ أن الاعتماد على التلفزيون أو الراديو وحدهما لا يخلق جيلاً متوازناً من الناحية الثقافية ، فالغالب على هذين الجهازين هو الجانب الترفيهي الذي لا يحمل معرفة ذات قيمة في إثراء الفكر البشري . وربما كان السبب الأساسي في ضحالة الثقافة التي نشكو منها لدى شبابنا يعود - بدرجة كبيرة - إلى أن الكتاب لم يعد الصديق المفضل ؛ ذلك لأنه يحتاج إلى جهد وعناء ، والشباب بسبب عوامل كثيرة اجتماعية واقتصادية يميل إلى الكسل ، واللامبالاة ، وبخاصة إذا وجد أن الثقافة المتعمقة قد لا تجلب إلا التعاسة ، وقد لا تمكنه من أن يعيش عيشة لائقة .

وأياً كان الأمر ، فالقراءة بالنسبة لمجتمع مثل مجتمعنا باب الأمل ، ولا يمكن لهذا الباب أن يفتح على مصراعيه إلا إذا بذلنا كثيراً من الجهد لتعليم هذه الكثرة الغالبة من الأميين ، ولقد أشار كثير من الساسة هنا إلى أن بناء المصانع سهل ، لكن بناء البشر صعب ، وكما هو واضح فإن هذه الحقيقة تؤيدها كل الدلائل ، ويؤكددها الواقع ، لكن ما السبيل؟ من المؤسف جداً أن تظل مصر ذات الحضارة العريقة تشكو الأمية بين نسبة من سكانها ، وهناك كثير من الطاقات المعطلة التي يمكن أن تسهم إسهاماً فعالاً في محو أمية كثير من أهلينا .

كيف يتقدم مجتمع بهذا العدد الهائل من الأميين والأميات؟ وكيف نخطط للقرن الحادي والعشرين ولا نضع في الحسبان المنفذين لهذه الخطة؟ إن الخطوة الأولى - بحق - والتي ينبغي أن تتخذ لكي نحيا عصرنا هي أن نربي

الأفراد ، ولن نبني الفرد بدون أن نعلمه كيف يقرأ ويكتب ، وسوف نسوق هنا مثالين لنبيين إلى أي حد تهتم الأمم المتعلمة التي لا يوجد فيها أمي بالقراءة :

١- في عام ١٩٥٧م حين أطلقت روسيا قمرها الصناعي الأول (سبوتنيك) اهتزت الأوساط التربوية والرسمية في الولايات المتحدة ، وكان السؤال الذي يبحث الأمريكيان الإجابة عنه هو : كيف استطاع الروس أن يسبقونا في هذا المضمار؟ وبعد دراسات واسعة ومستفيضة ، أرجع السبب في تفوق روسيا إلى أن المدرسة الأمريكية فشلت في أن تعلم التلاميذ القراءة الجيدة . أو القراءة للابتكار .

٢- وفي أمريكا بلد العلم ، والصناعة ، وغزو الفضاء نادى أحد المسؤولين عن التربية فيها أن تكون السبعينيات فترة لتحقيق ما أسماه (حق كل طفل في أن يكون قارئاً جيداً) .

فإذا كانت الدول المتقدمة مثل أمريكا تهتم هذا الاهتمام بتعليم القراءة وهي ما هي عليه من التقدم والمعرفة ، فلماذا تقف الدول المختلفة مترددة أمام هذا الأمر الذي نعتقد أنه لا يحتاج منا أكثر من النيات الصادقة ، والعمل العلمي الدعوب؟

كذلك فالقراءة بالنسبة للفرد وسيلة للتنمية الفكرية والوجدانية ، ذلك أن الفرد لا يمكن أن يتقدم ، أو أن ينمي نفسه دون تعرف وسائل ذلك التقدم وهذه التنمية ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالقراءة ، والقراءة الجادة المستمرة ، وما نظن أن مخترعاً عظيماً أو أديباً بارعاً ولد هكذا ، بل إن الاختراع والابتكار وليد العناء ، والمعاناة ، وليد القراءة فن من فنونها - مادة الفكر ، ووسيلته ، ولا يستطيع أي فرد أن يفكر دون الاعتماد على اللغة ، والفكر المجرد لا ينمو إلا من خلال اللغة ، ولذلك نرى الأفراد الذين حرّموا من نعمة السمع ، ومن ثمّ نعمة القراءة لا يجاوز تفكيرهم المستوى الحسي ، وبمقدار ما يقرأ الفرد يسمو فكره وتظهر مواهبه ، وتتسع آفاقه ، وتبرز ابتكاراته ، ومن يقرأ تاريخ

العلماء والأدباء والفلاسفة العظام يجد أن الصفة الجامعية بين هؤلاء جميعاً هي النهم القرائي، وأي إنسان يحاول أن يتصدى للقيادة الفكرية، أو الاجتماعية أو السياسية لابد من أن يقرأ ويقرأ. ولدينا أمثلة كثيرة، طه حسين، والعقاد، والزيات، ومشرفة، وأنيس منصور . . . الخ .

وعلاوة على أن القراءة وسيلة للتنمية الفكرية والوجدانية فهي - أيضاً - وسيلة للمتعة، والراحة النفسية - لأن القارئ - في العادة - ينتقل بالقراءة من المحيط الذي يعيش فيه إلى آفاق أرحب، وأجواء أهدأ، وأفسح، لا تعقيد فيها، ولا أزمات، وهو في بعض الأحيان - قد يتقمص شخصية بطل المأساة أو الملهاة، وهو في هذا قد يقارن ما هو فيه بما كان فيه البطل الذي يقرأ عنه. من ذا الذي لا يتمتع بهذا الجماع الروحي والفني في قصيدة شوقي - إلى عرفات الله - والتي منها :

ومن تضحك الدنيا إليه فيغرر	يمت كقتيل الغيد بالسمات
إذا زرت بعد البيت قبر محمد	وقبلت مشوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة	لأحمد بين السر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية	وضاع أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله يا خير مرسل	أبشك ما تدري من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف في عميق سبات
يايماهم نوران ذكر وسنة	فما بالهم في حالك الظلمات

ومن ذا الذي لا يعيش مع الشمس، والزهر، والطير، والجدول، والمنظر البديع حين يقرأ لأحمد فتحي :

أغار من نسمة الجنوب	على محياك يا حبيبي
وأحسد الشمس في ضحاها	وأحسد الشمس في الغروب
وأغبط الطير حين يشدو	على ذرا فرعه الرطيب
فقد ترى فيهما جمالاً	يسروق عينيك يا حبيبي

* * *